مالم يذكره التاريخ عن حرب الدرعية

أ . عبد الله بن خميس

فات مؤرخي حرب الدرعية كثير من أخبارها وصورها وملابساتها وما حصل لأهلها مع عدوهم من كر وفر ، وحرب سجال ، وتضحية وفداء . إذ أن أقدم من سجل حربها . وما وقف عليه من أخبارها هو ابن بشر وقد جاء رحمه الله متأخراً ؛ إذ أنه فرغ من تاريخه سنة ١٢٧٠ هـ بينما سقوط الدرعية قد تم سنة ١٢٣٣ هـ أي أن تسجيل الأحداث قد تم بعد سبع وثلاثين سنة وهو في عمر الزمن كثير .

فلا غرابة أن يفوته بعض أخبارها وما تم فيها من ملابسات وأحوال . كما أنه كان يعنى بسرد الوقائع والأخبار دون أن يتعرض للتحليل والبسط والنقد : فكم فاته من أخبار وآثار وصور .

وقد حدثنى والدى عن جدى الذى أدرك حرب الدرعية قال :

لما استسلم عبدالله بن سعود للأمر الواقع . وخرج إلى إبراهيم باشا فى مخيمه بعد أن أعذر وبذل كل محاولة لصد هجمات الأعداء المتوالية . ولم يبق لديه حيلة ولا وسيلة . وخشى أن يدهم جند العدو البلاد ويستبيحون بيضتها ويعبثون بالمحارم ولا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا : قدم نفسه فداء دون حوزة البلاد وحرمة أهلها فسلم نفسه لقائد الحملة إبراهيم باشا . ولما استقر به القرار عنده قال له إبراهيم باشا :

وهنا يذكر الخبر الذى لم يدونه التاريخ » قال : إنى سائلك عن أشياء ثلاثة لماذا لم تستعملها أو لم تستعمل واحدا منها ضدنا . وإذاً لكان بالإمكان صدنا أو إطالة الحرب بيننا وبينكم وربما كانت النتيجة فشلنا ؟ فقال له عبدالله بن سعود : ما هى هذه الأمور الثلاثة ؟!

قال الباشا :

أولاً .. من المعلوم أن بلادك جبلية وأنه لا يمكن الوصول إليها إلاّ عن طريق أودية ومنافذ محدودة . وقومك باديتهم وحاضرتهم أهل كر وفر . وقوم لهم ولع بالمطامع والغارات والكسب والنهب .. فلماذا لم تجعل قسماً منهم كبيرا يحتلون هذه الجبال وهذه المراصد والمخابئ فى بطون وأحضان الجبال مفرقين على عشرة أشخاص أو أقل . أو أكثر يغيرون على حملات التموين ويسلبون ما يسلبون منها ويقتلون من يقتلون . وكل من أخذ شيئاً فهو له . ومعلوم أن حملات تموينتا متصلة وتحمل كافة المؤن والأطعمة والسلاح والذخائر . وهى وإن كانت معها حراسة إلاّ أن حراستها لا يمكن أن تصد عنها هذه الغارات المتلاحقة . خصوصا فى أوقات الليل . ثم تأذن للبادية بمهاجمة هذه الحملات منذ دخولها بلادك من ميناء ينبع إلى أن تصل الدرعية .. إن هذا الأمر هو من العوائق الكبرى التى نعمل لها ألف حساب فى حربنا معكم فلماذا لم تستغلوها ؟ !

وثانيا : لقد حشدنا جميع ذخيرتنا من بارود وجبخان وأسلحة ومتفجرات فى مكان واحد ضيق بين جبلين لتسهل حمايته وحراسته وقد قدر وانفجرت هذه الذخيرة كلها وأتى هذا الانفجار على جميع المخزون من أسلحة وسواها حتى لقد سمع صوت الانفجار من مسيرة أيام وبقينا عطلا من الأسلحة والذخيرة مدة طويلة . فلماذا ـ وقد رأيتمونا على هذه الحال ـ لم تجهزوا علينا دفعة واحدة وتقتنصونا كقنص الجراد : إنها فرصة لا تعوض وأمنية لكم لا مثيل لها فلماذا انتظرتم والحالة هذه ؟!

ثالثا : إن معسكرنا فى أعلى الدرعية آخذ من الجبل الغربى الى الجبل الشرقى لم يترك منفذا للسالكين . وقُدّر أن سال وادى حنيفة سيلاً عظيما فشطر المعسكر شطرين وانقطعت الصلة بيننا . فلماذا لم تخرجوا على الشطر الذي يليكم وتسحقوه وتبيدوه إبادة كاملة . حتى إذا وقف الوادى

أجهزتم على الشطر الآخر لقد كانت فرصة لكم سانحة خدمكم فيه القضاء والقدر وسهل لكم ما كان متعذرا عليكم فهلا فعلتم ؟!

لقد كانت إجابة الأمير عبدالله بن سعود على هذه الأسئلة أن قال :

والله ما من واحد من هذه الأمور التى وقعت إلاّ وقد أشار على به أهل الدرعية وألحّوا . ولكن « اذا جاء القدر عمى البصر وذهب الحذر » . وهذا الخبر الذى سقناه ـ وإن كان خبرا حاد ـ إلاّ أن الدلائل والقرائن والشواهد تفيد بصحته وواقعيته . كما أنه يعطينا دليلا على أن الأمر قد انتهى إلى وضع لا تفيد معه الملامة ولا تنقذه الاجراءات المقترحة ـ فمثلا هذه الأمور التى تحدث عنها القائد المصرى بكل تجرد وصراحة لا تعفينا من المسئولية ولا تجردنا من المؤاخذة لا سيما وقد اعترف الأمير عبدالله بن سعود بما أشار به عليه أهل الدرعية وألحّوا فى المشورة . فالاحتجاج بالقضاء والقدر فى مثل هذا الموقف أمر فيه نظر ـ فلو أن الأسباب فعلت فى كل أمر من هذه الأمور لكان للنتائج وضع آخر غير ما حصل . ولو على الأقل إعفاؤنا من اللوم . بأننا بذلنا ما فى وسعنا ولا يلام المرء بعد الاجتهاد .

وخبر آخر لم يذكره التاريخ ايضا . ولكنه متواتر على ألسنة بعض الإخباريين : ذلك أن عبدالله ابن سعود حينما سلم نفسه للقائد المصرى وجهزه مع صحبة إلى مصر ووضع معه حراسا ومحافظين . ولما جدّ بهم الطريق وهم يسيرون ليلا أحاطت بهم جبال شاهقة وكان من أصحاب عبدالله بن سعود رجل يدعى ونيان « ولعله من آل ونيان الحروب أهل العويند » وكان فكِهًا متحدثاً قاصًا ـ وكان يتحدث أثناء ما هم سراة فقال : كان أناس معتقلون محمولون إلى حكومتهم لتجازيهم ولما وجدوا أنفسهم بين جبال وهم يسيرون فى الليل قفزوا من على ظهور مطيهم ولاذوا بالجبال وعبثا حاول الحراس والمحافظون العثور عليهم فلاذ هؤلاء بالفرار ولم يعرف عنهم بعد عين ولا أثر » ... ومضى ونيان مسترسلا فى أحاديثه وقصصه .. ولما خرجوا من الجبال تنبه عبدالله بن سعود لما يقصده ونيان من تنبيهه وتذكيره بالفرار . ولكنه لم يزد على أن قال : « فاتت يا ونيان » .

وهكذا نجد هذه الأخبار وأمثالها لم يتعرض لها التاريخ ولم يستقصها المؤرخون،وتبقى دائما مشيئة الله . ولله فى خلقه شئون .